قراءة في ضوء مفاهيم نظرية غولدمان لرواية أعدائي للمدوح عدوان

طعمه عبد عودة

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة (رازي)، كرمنشاه، إيران

أستاذ مساعد مريم رحمتي (الكاتب المسؤول)

استاذة قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة (رازي)، كرمنشاه، إيران

أستاذ علي سليمي

أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة (رازي)، كرمانشاه، ايران

أستاذ يحيى معروف

أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة (رازي)، كرمانشاه، ايران

A Reading in the Light of the concepts of the Goldman's Theory in the novel ‘My Enemies’ by Mamdouh Adwan

Taama Abdul Odeh

Assistant Professor Maryam Rahmati

(Responsible Author)

Professor Ali Salimi

Professor Yahya Marouf

ملخص البحث

تهدف هذه المقالة إلى دراسة المفاهيم الغولدمانية في البنية التكوينية من رؤية للعالم وبنية دالة، وكذلك تطرقنا إلى مفهوم الكلية والانسجام، والفهم والتفسير- حيث تسعى هذه المقالة إلى دراسة رواية (أعدائي) على وفق هذه المفاهيم، يتركز مضمون الرواية على القضايا الاجتماعية في مدّة الحكم العثماني للعرب، وتعتمد هذه الدراسة على منهج وصفي تحليلي للوصول إلى النتائج.

الكلمات المفتاحية: نظرية غولدمان، رواية أعدائي، ممدوح عدوان، رؤية العالم، البنية الدالة

Abstract

This article aims to study the concepts of Goldman›s in the compositional structure of the worldview as well as the semantic structure. We also addressed the concept of totality and harmony, understanding and interpretation. This article seeks to study the novel ‘My Enemies’ according to these concepts. The content of the novel focuses on social issues during the Ottoman rule of the Arabs. This study relies on a descriptive analytical approach to arrive at the results.

Keywords: Goldman›s theory, My Enemies novel, Mamdouh Adwan, worldview, semantic structure

المقدمة:

إنَّ أهمَّ ما يميّز النصّ الروائي هو ارتباطه بالبيئة الاجتماعية ارتباطاً جوهريّاً؛ لذلك كانت له القدرة على رصد الواقع بما يحمله من تفاصيل البنية المجتمعية، وقضايا المجتمع المتعددة، ومن هنا حفل النص الروائي ببيئة مميزة عن غيره من الأجناس الأدبيّة أولاً، كما حظي بمكانة مهمة في الحركة النقديّة المعاصرة، ولهذا الفن طاقات جمالية تتفجر على مدار السرد الروائي، ومن أجل اكتشاف تلك الطاقات الجمالية لا بدَّ من البحث عن العناصر الداخلية والخارجية في النص الروائي، وعن وظائفه وأبعاده الاجتماعية التي تهدف إلى تكوين رؤية كليّة عن النص الأدبي عامة والروائي على وجه الخصوص.

وقد أثار النقاد ماهية العمل الروائي وما تتضمنه من رؤى مرتبطة بالمجتمع، لذلك كان من أهم ما أثاروه هو رصد الارتباط بين النص والبيئة الاجتماعية التي تكوّن فيها، وما فيها من تأثير متبادل بينهما وهذا ما يرمي إليه اختيارنا لرواية أعدائي لممدوح عدوان؛ إذ يسعى هذا البحث إلى دراسة الرواية في ضوء مفاهيم نظرية غولدمان، أو ما يسمى بالنظرية البنيوية التكوينيّة التي تهتم بدراسة العناصر الداخلية، إما جزئيا وإما كلياً، ودراسة خلفية الحياة الاجتماعية في الرواية لمجموعة المؤلفين وفحص الخلفية الاجتماعية والتاريخية التي أسهمت في العمل الروائي للمؤلف، الأدب عندما أنشأها المؤلف ويعني ذلك فحص البنية النصيّة لإثبات الترابط بين عناصرها، والارتباط مع الثقافة الاجتماعية، ولا سيما أنَّ الرواية بوصفها إبداعًا فنيًا هي تعبير عن رؤية العالم، وهي رؤية تتكون داخل جماعة أو طبقة معينة في احتكاكها بالواقع، وصراعها مع الجماعات الأخرى.

ومن هذا المنطلق يسعى هذا البحث إلى أن يكون بحثا في سوسيولوجيا الرواية في رواية أعدائي

لممدوح عدوان لذلك فهو يسعى إلى قراءة أحداث الرواية اعتماداً على المنهج البنيوي التكويني النقدي لغولدمان

مستعملًا منهج الوصف والتّحليل لمناقشة الموضوع هادفًا الكشف عن معرفة الجوانب الاجتماعية المكنونة فيها؛ لإقامة علاقة ذات مغزى بين الشكل الروائي وأهم جوانب الحياة الاجتماعية، فالبنيوية التكوينية تدرس العلاقة بين الحياة الاجتماعية والفن الروائي، وذلك عن طريق تحليل البنى الروائية والبنى الاجتماعية.

وبناء على ما تقدّم ستجري قراءة العلاقة بين المجتمع والرواية وتأثير الرؤية الاجتماعية لدى المؤلف في الفكرة الأساسية في الرواية، انطلاقاً من أن الشكل الروائي في واقع الأمر انعكاس الحياة اليومية في الساحة الأدبية، وعلى ذلك يجب إدراك بنية العلاقات الداخليَّة للنص الروائي، ثم تفسيرها عن طريق ربطها ببنية الواقع الاجتماعي والفكري السائد على أساس كل سلوك وكل فكر، وهذا يدعونا بالطبع إلى الاستعانة بتصوّرات غولدمان المؤسس لنظرية الرواية التي ترتبط بحقول وأنساق معرفية متعددة تسهم في إثراء جملة من المفاهيم التي أسس عليها مقاربته للنصوص الروائية وأهمها: البنية الدالة التي تشكل المعنى الداخلي لهذه البنية الذي ينم عن وعي جماعي معين، والفهم والتفسير: تناول البنية العميقة للعمل الروائي مع النظر إلى البنية الروائية بوصفها وظيفة لبنية اجتماعية أوسع منها، ورؤية العالم: الذي يؤسس – وفقاً لغولدمان – نقداً سوسيولوجيا ينطلق من مفهوم الوسيط الذي يجمع بين الأنساق الأدبية والفنية والأساس الطبقي والاجتماعي الذي تنتمي إليه، بمعنى أن رؤية العالم لا تنحصر في مجموع الأفكار فقط، بل تشمل المشاعر والأحاسيس الإنسانية المشتركة بين أفراد الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها العمل الروائي، فهي إذن رؤية جماعية، كما يدعونا ذلك

للوقوف عند مفهوم الكلية والانسجام الذي يعني أنَّ العمل الروائي هو تعبير موحد ومتلاحم عن المطامح والرغبات طبقة اجتماعية متجانسة، فهو بذلك أبعد من أن يكون انعكاساً آلياً لوعي جماعي، ومن هنا نلاحظ أن رواية "أعدائي" للكاتب ممدوح عدوان تنطلق من هذا الأساس حيث إن الكاتب كتب عن مرحلة زمنية لم يكن شاهداً عليها، فالزمن الروائي يمتد ما بين ١٩١٤ و ١٩١٨، وهذا يعني أن عدوان لم يكتب عن تجربة معيشة وعن أشخاص عرفهم عن قرب، ونصه هو ثمرة نصوص عديدة كان للمخيلة دور في إنجازه واعتماداً على النصوص الفوقية يمكن القول إن المؤلف كان يسقط بعض تجاربه المعيشية على بعض شخوص روايته وهذا يعني أن الزمن الكتابي كان يترك أثراً في الزمن الروائي.

وبناءً على ما تقدم قسمنا دراساتنا هذه على مقدمة ومبحثين تناول المبحث الأول رؤية العالم وأهم التطبيقات عليه التي وردت في النص الروائي، أما المبحث الثاني فقد تناولنا فيه مفهوم البنية الدالة ومفهوم الكلية والانسجام، وكذلك تطرقنا إلى مفهوم الفهم والتفسير، ومن ثم خاتمة ضمت أهم النتائج التي خرجنا بها.

المبحث الأول: رؤية العالم.

تعد دراسة رؤية العالم أمراً مهماً في السياق المعاصر بشكل عام، إذ يتفق معظم الباحثين على أنّ التصورات والمعتقدات والمبادئ التي تستقر في صور الإدراك والسلوك البشري بطريقة تلقائية، تصبح تصورات مشتركة، ولرؤية العالم دلالات تتعلق برؤية الإنسان الفرد لنفسه وللناس من حوله ورؤية الجماعة لذاتها وموقعها بين الجماعات الأخرى".[١]

وتختص رؤية العالم بالصورة الكلية التي يكوّنها الإنسان لنفسه عن نفسه وعن العالم من حوله، وزاوية النظر التي يتخذها والبيئة الطبيعية

والنفسية والاجتماعية، والنظام الفكري بمكوّناته الثقافية وأطره المرجعية، وهذه الصورة الكلية هي التي تعرّف الإنسان". [٢]

وسواء على المستوى الفردي أم الجمعي، نلحظ أن الحاجة إلى فهم الوجود لا تسدُّ بمجرد الاستجابة إلى الحاجات البيولوجية بالانغماس المادي في عيش الوجود، وعلى المستوى الجمعي لا يكفي لوجود المجتمع وجود كينونة بشرية وإطار جغرافي بيئي حامل لها، بل لابد من معنى حامل أيضاً، يتمثل في سردية مؤسِّسة للُحمة الجماعة، وساندة له، وتمنح " الرؤية " المجتمع لحمته الرابطة بين مكوناته المختلفة التي يصير المجتمع من دونها مجرد مراكمة لأفراد لا مجتمع منظوم بعلاقات تمنحه صفة الديمومة التي تخرجه من مجموعة متفرقة من الذوات، إلى كينونة مجتمعية ذات هوية وعلائق وامتداد زمني، وبذلك فإن ضرورة اعتماد مفهوم " رؤية العالم " آتية من محورية المعنى الكلي في حياة الكائن الإنساني من جهة، وعمقه الوظيفي بوصفه بعدًا نظريًا شارطًا للوعي والسلوك من جهة ثانية، ومنه أصبح مفهوم " رؤية العالم " منظوراً منهجياً حاضراً في العلوم الإنسانية. [٣]

تكشف الرواية فترة الاحتلال العثماني، ومعاناة العرب في ظل الاحتلال والتنازعات بين القوى العظمى والتأثير النفسي والاجتماعي لهذا الاحتلال وحالة غياب الوعي القومي في تلك الفترة، تبدأ الرواية على لسان الراوي بحالةٍ معارضة للحالة السائدة آنذاك، فالظاهرة الأدبية " تتميز عن الأحداث السياسية وتتجاوزها إلى درجة أنّها تعكس أسبابها التي أدت إليها، وبذلك تتخذ حركة موازية للتحولات الاجتماعية الأساسية، التي تشكلها وتبنيها" [٤]

فتبدأ الرواية ب " ملعون أبو هذه الدنيا ...نظل طول عمرنا في الذنب. دائماً إلى الوراء ... مثل فلو

الجحاش يبدأ كركوراً مثل الغزال وينهي حماراً بأذنين مرخيتين وعينين بليدتين . أنا؟ أنا عارف الإبراهيم أصل إلى هذه المواصيل؟ أصير مضحكة؟ إذا كانوا هم يقبلون أن يصيروا مضحكة فأنا لا أقبل. هم لا يحسون أن للأمر علاقة بالكرامة. ومعظمهم يتخلصون من الإحراج كله بأن يقولوا: هذا من اختصاص مصلحة مكافحة الجاسوسية . والجميع يكتفون بالقول: عسكرنا حمير" (٥)

وكانت النظرة السائدة لدى العرب المسلمين في فترة ضعف أمر العثمانيين أن الرابطة الأساسية بين المسلمين جميعاً "إنما هي العقيدة، والمسلمون أمة واحدة من دون الناس لا اختلاف بين الأجناس أو الألوان أو اللغات ضمن هذه الأمة إذ إنهم أعضاء فيها لا يقوم بينهم فاصل أو ميزة "(٦)

إذن الرؤية الكلية في المجتمع العربي كانت رؤية تآخي مع العثمانيين، هذه الرؤية بُنيت على أساس ديني، أما شخصية الرواية الرئيسية شخصية عارف إبراهيم فكان لديها رؤية قومية ثورية مبكرة .

يقول عارف إبراهيم: "عسكرنا حمير؟ ونحن ماذا؟ غزلان؟ لولانا لما صار عسكرنا هكذا نحن الذين ربيناهم على أن يكونوا حميراً، على أن لا يرمغوا أعينهم إلى أعيننا، لا يجرؤ واحد منهم أن يسأل ضابطاً عما يريده حتى لو كان يدخل إلى أخطر المواقع، أو كان يفعل أي شيء . يكفي أنّه ضابط أفندي . أما لو كان (بيك) أو باشا فيا رب العفو"(٧)

كان لعارف إبراهيم رؤية سلبية تجاه اليهود، تجلت قوميته العربية عبر عدائه لهم، كان رافضاً لوجودهم الاجتماعي، وكأن ممدوح عدوان يوظف رؤية عارف إبراهيم ليعكس رؤية العرب جميعهم تجاه التواجد الصهيوني اللاحق على الأراضي العربية.

ولا كان اليهود جديدين عليه

. فهو مغتاظ مسبقاً من الامتيازات التي يتمتعون بها مما يجعله لا يعرف لهم أساساً من رأس . هم يهود يريدون حرية ممارسة طقوسهم وعباداتهم. وهم مزارعون يريدون استصلاح الأراضي. وهم مرابون يديّنون بالفائدة. وهم ذليلون يقبلون الإهانات ويقومون بأقذر الأعمال وأحطها. وهم صاغة وساعاتية وأصحاب خمارات وبارات وهم قوادون... وهم مستخدمون وتجار خردوات وعتقجية وهم في أعلى مناصب الدولة . وهم محميون بامتيازات فرضتها علينا الدول العظمى"[٨]

وهنا يصبح لنا مؤكداً " أن الأدب في أحد جوانبه يعكس الحياة الاجتماعية، ما يدل على أن الأديب فرد من جماعة في المجتمع . لا يستطيع ممارسة وجوده كإنسان ثمّ كأديب خارج مجتمعه، والأمر نفسه ينطبق على ما يكتبه من أدب، الذي هو في جوهره تعبير عن هذا المجتمع ورؤيته للعالم"[٩]

ومن ثمّ تظهر شخصية إبراهيم بن عارف إبراهيم وهو شخصية ذات وعي ثوري وبحسب لوسيان غولدمان "شكل الوعي بالمستقبل ومن ثم يرتبط بالحلول الجذرية التي تطرحها الطبقة لتنفي مشكلاتها، وتصل إلى درجة من التوازن في العلاقات مع غيرها من الطبقات الأخرى" [١٠]

يظهر هذا التوجه في حوار إبراهيم مع والده: "يا ابني الحرب هكذا الحرب فيها موت كل شيء يهون من أجل الوطن والدين

– هذا ما أقوله أنا

تطلع إلى ابنه غير فاهم . فأكمل الشاب بحماس: لا شيء غال على الوطن . والذين سوف يعدمهم جمال باشا يضحون من أجل وطنهم". [١١]

لم يكن موقف إبراهيم من الإعدام مجرد حوار مع أبيه إذ تحوّل إلى عنصر فاعل في الذود عن الأشخاص الذين سيعدمهم جمال باشا، كان إبراهيم يدافع عن أشخاص ظناً منه

أنهم عرب مسلمون لكنه تفاجأ أنّ أصحاب القضية هم مسيحيون عرب، وأكراد مسلمون، وهنا النقطة التي بدأ ممدوح عدوان منها إظهار قضايا المنطقة ورؤية سكانها وموقفهم منها.

"لم ينم إبراهيم تلك الليلة . راح يحمل النبأ لزملائه متوتراً: جمال باشا وقع قرار الإعدام والتنفيذ صار وشيكاً . ولكي لا تحدث حوادث شغب هناك حملة اعتقالات ستشمل مرافق البلاد وشبابها كلهم ماذا نفعل نحن؟ ولو. نحن ندور على بيوت والوطنيين وننقل لهم النبأ لكي يهرب من يستطيع الهرب منهم ... خلال دقائق يجب توزيع الأوراق على المتاجر" .(١٢)

وهنا بدأ تداخل الشخصيات وتعدد الأصوات لإيصال رؤية الروائي إلى المتلقي، لكن العلاقة هنا بين ممدوح عدوان والشخصيات ليست على علاقة سلطوية، فقد أتاح ممدوح عدوان لشخصياته الفرصة للتعبير عن ذاتها وقضاياها، فالعلاقة بين الروائي والشخصيات " علاقة اكتشاف متبادلة بينهم " (١٣)

"قال إبراهيم بحماسة الشباب: لا. كلنا عرب.

ابتسم له الدليل: ماذا أفعل معكم إذن؟ أنا لست عربياً، تطلع إليه إبراهيم غير مصدق فأكمل الدليل ابتسامته: أنا كردي . قال إبراهيم: يعني مصر أننا إسلام، قال الدليل لكن الذي سلّمكم إلي مسيحي . والذي سيعدمون بينهم أكثر من مسيحي" (١٤)

إن رؤية إبراهيم القومية ودفاعه عن أبناء أمته، تشكلت نتيجة تربيته في بيت عارف إبراهيم، على الرغم من عدم ظهور الشعور القومي لدى عارف إبراهيم إلّا أنّه كان وفياً لعمله وللعثمانيين، إنّ التمسك بالقضايا الجوهرية هي السّمة الأوضح للشخصيات العربية في الرواية لكن ولاء عارف لقضايا أمته وانحيازه لها لم يظهر إلّا في نهاية الرواية، إذ كانت نهاية الرواية بمثابة إعلان لرؤية المرحلة

الجديدة في الشرق الأوسط، وقد تبنى عارف إبراهيم الموقف الرافض لقيام دولة لليهود على حساب أبناء أمته.

" يظهر أنك لم تعرفني جيداً حتى الآن يا ألتر.

ولكنني أقول لك يا عارف أنّ الأمور ماشية ولن تستطيع أن تغير فيها شيئاً. الإنكليز سيكملون احتلال فلسطين كلها . وأنت ضيعت فلسطين وضيعت مستقبلك ... لم يعد يطيق الاستماع تركه وخرج، بعد أن أقفل الباب ووضع المفتاح في جيبه " (١٥)

وبذلك نلاحظ أن مفهوم رؤية العالم يندس في نظريات كثيرة دون أن تكون بالضرورة نظريات تدول حول رؤية العالم، ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ مفهوم رؤية العالم مفهوم عام، لا يمكن لأي منظر أو دارس إلّا أن يضع في نظريته مفهوماً لرؤية العالم على اعتبار أن الأفراد في كل زمان ومكان يصيغون رؤى حول العالم الذي يعيشون فيه، والعالم الذي ما وراء الطبيعة، وعليه فإن مفهوم رؤية العالم يمكن أن يحايث أي نظرية اجتماعية أو أنثروبولوجية وهذا سبب لعدم تمكننا من جمع الآراء حول رؤى العالم في إطار نظري محدد" (١٦)

لذلك فإن دراستنا لرؤية العالم في رواية (أعدائي) هي محاولة فقط لالتقاط بعض الرؤى وفقاً لثقافتنا ومنظورنا الاجتماعي والفكري .

المبحث الثاني:

١ – البنية الدالة:

يشكل هذا المصطلح محوراً جوهرياً في منهج لوسيان غولدمان، وهو حجر الزاوية في فهمنا للعلوم الإنسانية التي تقوم أساساً على التحليل الدقيق لأنشطة الإنسان في المستويين البنائيين أي التاريخي والأدبي، ويبدو أن هاتين البنيتين ترتبطان بعلاقة جدلية وقد عبر غولدمان عن الفكرة بقوله " إنّ البنية تحدد الدالة تكتسب دلالتها في أثناء أدائها لوظيفتها في حين أنها تقوم بوظيفتها من أجل أن تكون بنية

ذات دلالة، فالعلاقة إذاً بين الوظيفة والدلالة والبنية هي علاقة جدلية، وقد استعان على تطبيق هذه المفاهيم في ميادين البيولوجيا، وعلم الاجتماع بما سبق إليه جان بياجيه، ومن هنا جاء توسعه في شرح الجانب النظري من علم الاجتماع الأدبي "[١٧]

وإذا أردنا تطبيق البنية الدالة في رواية (أعدائي) سنبدأ بعنوان الرواية الذي مثّل الطبقة السلطوية الحاكمة، التي سيطرت على بنى المجتمع العربي ومكوناته الفكرية والثقافية والتاريخية، وأنتجت واقعاً استبدادياً مليئاً بقهر الإنسان العربي وظلمه، مما أدى إلى إنتاج طبقة اجتماعية متخلفة وجاهلة ومغيبة عن الحقائق، ومفهوم البنية الدالة " لا يفترض فقط وحدة الأجزاء ضمن كلية النص والعلاقة الداخلية بين العناصر، بل يفترض في نفس الوقت الانتقال من رؤية سكونية إلى رؤية دينامية "[١٨]

وتلعب الدالة دوراً مهماً في الكشف عن مكنونات العمل الأدبي.

ونستطيع أن نستخلص من مفهوم البنية الدالة هدفين "يتحدد الأول في فهم الأعمال الأدبية من طبيعتها ثم الكشف عن دلالتها التي تتضمنها وهذا الهدف يرتبط أساساً بالفهم أما الثاني فيتمثل في الحكم على القيم الفلسفية أو الأدبية أو الجمالية وبذلك يصبح للمفهوم بعدمعياري".[١٩]

ونرى أن عنوان الرواية يحدد البنى الدالة منذ البداية إلى النهاية ويشكل " إحالة إلى واقع سياسي أو تاريخي فإن ذلك لا يتم من خلال المطابقة، وإنما من خلال المتخيل السردي، ومنها تتنزل الأحداث التاريخية من منبع الإلهام مشابهة للأحداث الواقعية، مشابهة لا مطابقة"[٢٠]

لم تخلُ البنية السردية من أعداء (ممدوح عدوان) ممثلاً نفسه بالطبقة الاجتماعية العربية التي دلّت عليها ياء المتكلم أمّا الأعداء فهم العثمانيون،

الألمان، الفرنسيون، اليهود . ومقولة إبراهيم بن عارف الشخصية العربية في الرواية ذات التوجه القومي " وفي الوقت نفسه يتمنى أن يتناول سلاحاً ويخرج به ويبدأ بإطلاق النار على كل من يصادفه من الأعداء العثمانيين والخونة والعملاء والدرك من باب السجن حتى الباب العالي في اسطنبول"(٢١)

ويتابع (ممدوح عدوان) تعداد أعدائه أيضاً على لسان عارف إبراهيم الذي يعتدُّ معادلاً موضوعياً للروائي في هذا المقطع وهو يوجه الكلام لألتر ليفي " أنا اعتبرك عدوي وعدو شعبي وعدو ديني ثم عدو جنسي البشري كله الذي ترى نفسك أفضل منه، وترى أنك ستنقله من الهمجية إلى الحضارة"(٢٢)

إن (ياء المتكلم) في العنوان هي الدالة الرئيسة أن (ممدوح عدوان) يمثل معادلاً موضوعياً للشخصيات الثورية ضد الاحتلالات جميعها.

أما الألمان فكانوا أيضاً أعداءً في الرواية، فالجاسوسة الألمانية آنا ليستر ورطت الضابط العربي عبد السلام وأقنعته بسرقة الوثائق من مكتب جمال باشا وأوحت له أنهما أصحاب قضية مشتركة، إلّا أنها أرسلت من يحاول اغتياله بعد الحصول على الوثائق.

"قالت له:ألم أقل لك إنني أريد نسخة. سأصور الوثائق التي ستجلبها. نحن أيضا نريد أن نعرف مع من نتحالف. نحن نخوض حرباً على مستوى العالم . ولا نريد أن تحدث أية أخطاء أو أن يتلاعب بنا أحد . فإذا عرفنا أن الباشا يتعامل سراً مع الإنكليز استطعنا أن نتجنب كارثة لقواتنا المتورطة هنا . أرأيت؟ المسألة لمصلحتنا ومصلحتكم موافق؟"(٢٣)

كما رأى (عدوان) أن الفرنسيين يحاولون طمس معالم الهوية العربية بحجة التعليم إذ لم تكن"هذه المدارس من أجل العلم فقط . بل إنها تهدف إلى شيئين أساسيين وهما متناقضان جداً

لمن يتعمق فيهما . من جهة يريدون نشر الدين المسيحي، ومن جهة أخرى يريدون من الشبان المسلمين التمرد ضد دينهم بحجة التقدم والتنوير"[٢٤].

بذلك -وفق غولدمان- تكون البنية الدالة " الأداة الأساسية التي تمكننا من فهم طبيعة الأعمال الإبداعية ودلالتها، كما تعد المعيار الذي يسمح لنا بأن نحكم على قيمتها الفلسفية والإبداعية أو الجمالية، بقدر ما يعبر النص عن رؤية منسجمة من العالم وأننا لنتمكن من فهم تلك الأعمال وتفسيرها تفسيراً موضوعياً بقدر ما نستطيع أن نبرز الرؤية التي تعبر عنها"[٢٥].

والبنية الدالة مقولة فلسفية أو تصور ذهني يتحكم في مجموع العمل الأدبي، وهي التي تشكل لحمته ومنظوره ونسقه الفلسفي، وهي تساعدنا في إضاءة النص الأدبي وفهمه فلسفياً وذهنياً على تحديد رؤية المبدع للعالم ضمن تصور جماعي، وتحمل بنى العالم الإبداعي دلالات وظيفية تعبر عن انسجام هذا العالم وتماسكه دلالياً وتصورياً وفكرياً في التعبير عن الطموحات الاجتماعية والسياسية والإيديولوجية للجماعة.

لقد حملت البنية الدالة في الرواية مفاهيم سياسية واجتماعية، دلت على كيفية تأثير الدولة في المجتمع وعلى العلاقة بين المواطنين والدولة ومؤسساتها، أي علاقة الرعية بالراعي، كما ركزت البنية الدالة على أشكال الهيمنة التي يمارسها الأفراد ضد الجماعات الإنسانية، وأوضح (ممدوح عدوان) في روايته القضايا والمشاكل والعلاقات الاجتماعية المؤثرة ذات الطبيعة السياسية، وخاصة ما يتعلق بالإيديولوجيات وقوى الضغط .

٢- الفهم والتفسير:

يقوم مبدأ الفهم والتفسير " على التكامل بين داخل النص الإبداعي والواقع الاجتماعي التاريخي ويعتمد هذا المبدأ على إنتاج بنيات دالة

تنتمي إليها المجموعة أو الطبقة التي يمثلها هذا السلوك في صوره فيغدو هذا النتاج أو الأثر ذا دلالة حقيقية تنبع من اندماجه في النسق العام الدال على بنية الواقع الذي يحكمه، ويصوره في ظل مقولات فكرية وقيم، ويتجلى هذا الاندماج من خلال مبدأ الفهم والتفسير للعمل الإبداعي، فهما عمليتان تهدفان إلى وضع النص ضمن إطار من الدراسة ".[٢٦]

ويقول جميل حمداوي وتذهب النظرية التخاطبية إلى أن النص الأدبي تخاطب وتداول يجمع بين أطراف ثلاثة وهي المرسل المتكلم الذي قد يكون كاتباً أو مؤلفاً أو سارداً أو شخصية، والمرسل إليه الذي قد يكون شخصاً مخاطباً، كأن يكون قارئاً أو متلقياً أو شخصية مقابلة للشخصية المتكلمة، وهناك العنصر الثالث الذي يتمثل في الخطاب التداولي أو الرسالة المرسلة، فالنظرية التخاطبية تستوجب وجود ثلاثة أطراف (المرسل –الرسالة – المتلقي) فالمرسل هو الذي يسنن رسالة ما يرسلها إلى المتلقي ليقوم بدوره بتفكيكها في ضوء سنن مشترك .[٢٧]

ولكي نحلل رسالة نصية ما يجب علينا الاعتماد على الخطة التي وضعتها كاترين أوريكبوني لتحليل المحتوى:

أ- الركيزة اللغوية للمحتوى.

ب- وضعه سواء كان افتراضاً أم تضميناً.

ت- الآليات التي ترسي أسس استخراجه.[٢٨]

ويجب علينا " التعامل مع الظواهر والوقائع الأدبية تعاملاً اجتماعياً فهماً وتفسيراً وتأويلاً، بربط الأدب بالمؤسسات الاجتماعية، ودراسة الإبداعات الفنية والجمالية في ضوء سياقها المجتمعي، ورصد مختلف العلاقات المباشرة وغير المباشرة التي تصل الأدب بالمجتمع"[٢٩]

وعليه سنقوم بمحاولة خطوات فهم وتفسير لرواية أعدائي:

هو سياق تاريخي معروف مسبقاً لدى المتلقي لذلك على القارئ تتبع التفاصيل المتخيلة في الرواية من شخصيات وحوارات وهمية.

في حوار يتضمن معلومات تاريخية إلّا أنّه مليءٌ بالمنولوجات الداخلية للشخصية وهي رسائل من الروائي إلى المتلقي، كان سهلاً على المتلقي فك شيفرات الرسالة وذلك لأن معظم الرسائل تنتمي إلى البنية الفكرية للمتلقي.

"ويقف آرون بباب الغرفة: كلكم صرتم عملاء لأفشالوم . أنا الآن أشكو من أقليتي

– لا لست أقلية نحن نشتغل معك طول النهار – هل تريدنا قبل النوم أن نقرأ عن العيرون أم الكينا؟

بالمناسبة أنتم وصاحبكم أفشالوم تسمونها الكينا.

وهذا غلط في مصر أيضاً يسمونها الكافور. وهذا غلط أيضاً. هي الإيكاليبتوس.

• هذه القراءة تضييع للوقت . إن شئتم أن تقرأوا شيئاً غير الأبحاث العلمية فأقرأوا التوراة أو التاريخ العبري، عيشوا أحلامكم، ولا تضيعوا أوقاتكم مع أحلام الآخرين.

وكانت حجة أفشالوم قوية دائماً: ماذا يساوي الإنسان لولا حلمه؟ أنت تشتغل في الأبحاث الزراعية لتحقيق حلم العثور على النباتات الصالحة لهذه المنطقة . حتى العودة إلى التوراة هي عودة إلى حلم لكنا نشتغل لتحقيق حلم نحلم به منذ ألفي سنة وهو العودة إلى أرض الميعاد، وبناء مملكة يهوذا من جديد لشعب الله المختار " [٣٠]

إن المقطع يحوي شيفرات يمكن للقارئ بسهولة تلقيها وهي آلية تفكير الآخر وهواجسه، والمتلقي العربي أو الغربي على علم بهواجس اليهود وتطلعاتهم لإقامة وطن قومي من النيل إلى الفرات، وهو حلم مقدس إلى درجة أن الشخصية همشت أي علم

آخر أو كتاب آخر، وكأنها رسالة أن أولوية اليهود هي إقامة مجتمع على أرض الميعاد الذين لا يوفرون أي وثيقة أي كتاب لإقناع الآخر بأحقية وجودهم على أرض فلسطين وفي حالة استمرارية لتشفير الرسائل بقصد إيصالها بطريقة إيجابية .

يستمر ممدوح عدوان في سرده "لكن بن غورين . حتى بعد أن ترك لك المزرعة ظل محور أحاديثها . إذ تحول إلى مثل أعلى للعديد من الشباب فهو لا يلقي خطاباته إلاّ بالعبرية . ولا يجلس دون عمل . صحيح أنه يحتاج إلى العمل . فهو حين جاء إلى فلسطين لم يكن يملك إلا القميص الذي يرتديه . ولكنه لا يعمل لكي يأكل فقط . بل يعمل لبناء دولة "[٣١]

إن هذا المقطع يحمل رسائل عديدة للمتلقي، ف بن غورين يمثل قدوم اليهود إلى فلسطين، فهم لا يملكون شيئاً ويسعون لامتلاك كل شيء فالشخصية لا تمتلك الملابس إلّا أنها تسعى بالعمل وهنا دلالة على الخطط المنظمة لبناء مجتمع ودولة على أرضٍ لا يملكون منها شيئًا.

كما يوضح لنا (ممدوح عدوان) الصراع الذي نشأ في المجتمع بين جيل الآباء الذي نظر إلى العثماني بوصفه خليفةً للمسلمين، وجيل الأبناء الذي رأى العثماني محتلاً يسرق أرضه وثقافته وتاريخه ووضح الإمكانيات الضعيفة لجيل الشباب التي لم تمكنهم من مجابهة العثماني إلا عن طريق بعض المواقف وردود الأفعال الانفعالية . تمثل هذا عن طريق علاقة إبراهيم بوالده عارف عندما قال: أنا إبراهيم ولست عارف إبراهيم، على الرغم من افتخاره بوالده وقيم والده، إضافة إلى العلاقة التي تجمعهما بوصفهما أبًا وابنًا والتي ظهرت في مقاطع عدة في الرواية، ومن نواح عدة أيضاً .

"أنا إبراهيم ولست إبراهيم عارف إبراهيم. كان يكررها لزملائه دائماً. ويبرر بأنه لا يخجل من انتمائه أبيه

الضابط المتميز في الشرطة العثمانية، والذي يرأس شرطة علية بيروت لكنه يريد أن يواجه الحياة معتمداً على نفسه".[٣٢]

إذا كان الفهم هو التركيز على النص ككل دون أن نضيف شيئاً من تأويلنا أو شرحنا، فإن التفسير هو الذي يسمح بفهم البنية بطريقة أكثر انسجاماً مع مجموع النص المدروس ويستلزم التفسير استحضار العوامل الخارجية لإضاءة البنية الدالة، والفهم والتفسير عمليتان مترابطتان لا يمكن أن نفصل بينهما ويمكننا الإضافة أن السلوك الذي يوضح الأثر هو غالباً لا يوضح سلوك الكاتب بل سلوك الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها الكاتب بالضرورة.

٣- الكلية والانسجام:

الرواية هي سرد أحداث، ونقلها باستعمال اللغة والتصوير، وكذلك بالنسبة للشخصيات فمنها ما هو حقيقي، وما هو من وحي الخيال وهذا ما يميز الرواية عن غيرها من الأنواع الأدبية المختلفة، وهي الفن الذي يوفق بين شغف الإنسان الحديث بالحقائق وحنينه الدائم إلى الخيال وبين غنى الحقيقة وجنوح الخيال"[٣٣]

وعدّ العمل الأدبي أو الفني عملاً كلياً، أي دراسته بوصفه بنية دالة كلية، يستلزم تحليل النص بطريقة شمولية، وذلك بتحليل بنياته الصغرى والكبرى عن طريق تحليل عناصره الفونولوجية والتركيبية والدلالية والبلاغية والسردية والسيميولوجية دون أن نضيف مالا علاقة له بالنص، إذ علينا الالتزام بمضامين النص دون تأويله أو التوسع فيه.[٣٤]

إن مفهوم الكلية والانسجام مفهوم بالغ الأهمية في مفهوم رؤية العالم عند غولدمان، وهو ما أكده روجي غارودي، بأن البنية الداخلية للأعمال الفلسفية أو الأدبية أو الفنية العظمى صادرة عن كون هذه الأعمال تعبر في مستوى يتمتع بانسجام كبير

عن مواقف كلية يتخذها الإنسان أمام المشاكل التي تطرحها العلاقات فيما بين البشر والعلاقات بين هؤلاء وبين الطبيعة، وقد أكد غولدمان أن رؤية العالم هي وجهة متماسكة وموحدة، وهذا التماسك والانسجام يجعل رؤية العالم لا تتجاوز حدود الوعي الجمعي[٣٥].

لقد حاول (ممدوح عدوان) رسم وعي كلي ومنسجم داخل الرواية، عبر البناء السيكولوجي والسيوسيولوجي للشخصيات .

"كان سميح دائماً يجد في إبراهيم حماية له. فإبراهيم طويل القامة عريض المنكبين عضلات كتفيه وصدره تظهر من خلال قمصانه شكله وحده كان يحسم بعض المعارك دون وقوعها .

وحين تقع تلك المعارك كان إبراهيم يثبت أن هذا الجسد يصلح لما يوحي به"[٣٦]

ومن ثمّ رسم أبعاد المكان وخصوصيته في كل جزئية من الرواية، ووصف الفنادق والحارات حيث نقرأ هذا المقطع.

"حجز في فندق الأوريان غرفتين متجاورتين، بينهما باب مشترك. سمّر باب الأولى من الداخل وغيّر قفل الباب الثاني بقفل جديد وهو يحمل المفتاح معه دائماً"[٣٧]

إضافة إلى التسلسل الزمني، والمصداقية في نقل الأحداث التاريخية، مهتماً بباقي عناصر البنية السردية من حوارات للشخصيات وتوظيفها دلالياً لتشكل صورة واضحة عن الحدث والشخصية.

كل هذا وضع المتلقي أمام عمل أدبي يتألف من جزئيات تسعى للتكامل، وكانت العلاقة علاقة انعكاس فاستمد (ممدوح عدوان) لكنته من التاريخ ومن ثمّ أعاد صياغته ضمن جزئيات منسجمة مع بعضها بعضاً، ليعود ويشكل بنية كلية منسجمة.

ونستطيع القول إن لوسيان

غولدمان حدد "نوعية العلاقة بين الحياة الاجتماعية والإبداع الأدبي فهي علاقة جوهرية، تقوم على أساس التماثل الموجود بين النص الأدبي، وعلاقته بالبينات الذهنية لطبقة، أو فئة اجتماعية، فالبينات الذهنية ليست ظواهر فردية، بل ظواهر اجتماعية، وهي لا تتعلق بالمستوى المفهومي أو بالمضمون، أو النوايا الشعرية، ولا تتعلق بإيديولوجيا المبدع بل تتعلق بما يرى، ويحس"(٣٨)

من قرائتنا للرواية بات واضحا أن غولدمان يحاول أن يبحث عن العلاقة بين الأثر الأدبي وسياقه الاجتماعي، والاقتصادي أيضا، ومن الواضح أن الأعمال الروائية الخالدة، التي استطاعت فرض وجودها على الواقع الروائي كانت كلها مُستقاة من الواقع الاجتماعي؛ لذا نستطيع القول إن الكتابة في هذا الصدد تجعل الباب مفتوحًا على مصراعيه؛ نظرا لارتباطها بالواقع.

الخاتمة والنتائج:

منذ أن وضع غولدمان نظريته البنيوية، التي اهتمت بالعلاقة الخارجية للأدب كما أشرنا، في أن الأدب بنيويا يُدرس بعيدًا عن المحيط وعن المبدع، ويمكن عد النظرية الغولدمانية، أحد الطرق التي عن طريقها يجري تحليل الأدب، الذي يتعامل مع المجتمع، وقضاياه، التي تصورها الرواية.

ومن دراستنا توصلنا لبعض النتائج هي:

١- لرؤية العالم دلالات تتعلق برؤية الإنسان الفرد لنفسه وللناس من حوله ورؤية الجماعة لذاتها وموقعها بين الجماعات الأخرى.

٢- يوظف ممدوح عدوان رؤية عارف إبراهيم ليعكس رؤية العرب جميعهم تجاه التواجد الصهيوني اللاحق على الأراضي العربية.

٣- يوضح لنا ممدوح عدوان الصراع الذي نشأ في المجتمع آنذاك بين جيل الآباء الذي نظر إلى العثماني بوصفه

خليفة للمسلمين، وجيل الأبناء الذي رأى العثماني محتلاً يسرق أرضه وثقافته وتاريخه، تمثل هذا من علاقة إبراهيم بوالده عارف.

٤- لقد حملت البنية الدالة في الرواية مفاهيم سياسية واجتماعية، دلت على كيفية تأثير الدولة في المجتمع، وعلى العلاقة بين المواطنين والدولة ومؤسساتها، أي علاقة الرعية بالراعي.

٥- حاول (ممدوح عدوان) رسم وعي كلي ومنسجم داخل الرواية، عن طريق البناء السيكولوجي والسيوسيولوجي للشخصيات.

الهوامش:

١- ينظر: فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم حضور وممارسات في الفكر والعلم والتعليم، المعهد العالي للفكر الإسلامي، ص ١٠-١١

٢- المصدر نفسه، ص٤٦

٣- ينظر: الطيب بوعزة، مفهوم " الرؤية إلى العالم " بوصفه أداةً إجرائية لقراءة تاريخ الفكر الفلسفي . ص ٢٣- ٢٤.

٤- جابر عصفور، المرايا المتجاورة دراسة في نقد طه حسين،ص١٤ .

٥- الرواية: ص ٨.

٦- محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، العهد العثماني، ص ١٦.

٧- الرواية، ص ٩.

٨- الرواية: ص ١٠ .

٩- الشريف حبيلة، سوسيولوجيا النص الروائي من النظرية إلى التطبيق، ص ١٧.

١٠- لوسيان جولدمان وآخرون، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، ص ٣٣.

١١- الرواية، ص ٣٤.

١٢- الرواية، ص ٢١٩.

١٣- ميخائيل باختين، الملحمة والرواية، ص ١٢.

١٤- الرواية، ص ٢٢١

١٥- الرواية، ص ٨٨٦.

١٦- ينظر: أحمد زايد، مفهوم رؤية العالم في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، ص ١ - ص ٨.

١٧- جون هال وآخرون، مقالات ضد البنيوية، ص ٣٠.

١٨- جمال شحيد، في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان، ص ٨١

١٩- صالح ولعة، البنيوية التكوينية، ص ٢٥٨.

٢٠- ناصر يعقوب، اللغة الشعرية في الرواية العربية، ص ٢٠٨.

٢١- الرواية، ص ٢١٣.

٢٢- الرواية، ص ٤٨٠.

٢٣- الرواية، ص ٣٦٠

٢٤- الرواية، ص ٢٠٩.

٢٥- عمر محمد طالب، مناهج

الدراسات الأدبية الحديثة، ص ٢٤٣.

٢٦- عبد القادر بختي، عادل اسعيدي، مرتكزات بنيوية لوسيان غولدمان التكوينية، ص ٢٠٥

٢٧- ينظر: جميل حمداوي، المقاربة النقدية في الأدب والنقد، ص ٩٦.

٢٨- ينظر: كاترين أوريكبوني، المهجر، ص٢١.

٢٩ -جميل حمداوي، ميادين علم الاجتماع، ص ٢٠٨.

٣٠- الرواية، ٩٣

٣١- الرواية، ٩٩

٣٣- ينظر: محمد هادي مرادي وآخرون، لمحة عن ظهور الرواية العربية وتطورها، ص١٠٢.

٣٤ - ينظر: جميل حمداوي، مدخل إلى البنيوية التكوينية،، مقال

٣٥- عبد القادر بختي، عادل اسعيدي، مرتكزات بنيوية لوسيان غولدمان التكوينية، ص ٢٠٥.

٣٦- أعدائي، ٧٢٤

٣٧- أعدائي، ١٧٤-١٧٥

٣٨- زينة زعتي _لينذا عدة، تلقي البنيوية التكوينية في النقد الجزائري المعاصر، ص٢١

المصادر والمراجع:

١- أحمد زايد، مفهوم رؤية العالم في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، المجلة الاجتماعية القومية، المجلد ٥٢، العدد ٣، سبتمبر ٢٠١٥

٢- جابر عصفور،المرايا المتجاورة دراسة في نقد طه حسين، دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨

٣- جمال شحيد، في البنيوية التركيبية دراسة في منهج لوسيان غولدمان، دار ابن رشد، بيروت ط١، ١٩٨٢

٤- جميل حمداوي، المقاربة النقدية في الأدب والنقد، كانون الثاني، ٢٠١٢

٥- جميل حمداوي، مدخل إلى البنيوية التكوينية، مجلة ندوة الإلكترونية، رئيس التحرير سيد جودة، مقال

٦- جميل حمداوي، ميادين علم الاجتماع، الألولة، المغرب، ط١، ٢٠١٥

٧- جون هال وآخرون، مقالات ضد البنيوية، تر: إبراهيم خليل، دار الكرمل، ١٩٨٦

٨- زينة زعتي _لیندا عدة، تلقي البنيوية التكوينية في النقد الجزائري المعاصر، رسالة ماجستير الجزائر، ٢٠٢٠

٩- الشريف حبيلة، سوسيولوجيا النص الروائي من النظرية إلى التطبيق، دار خيال للنشر والترجمة، الجزائر، ٢٠٢١

١٠- صالح ولعة، البنيوية التكوينية، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية،الجزائر، العدد ٨، ٢٠٠١

١١- الطيب بوعزة، مفهوم " الرؤية إلى العالم " بوصفه أداةً إجرائية لقراءة تاريخ الفكر الفلسفي، مجلة تبيُّن، العدد ٨/ ٢، ربيع ٢٠١٤

١٢- عبد القادر بختي، عادل اسعيدي، مرتكزات بنيوية لوسيان غولدمان التكوينية، مجلة آفاق علمية الجزائر، مج١١، عد٤، ٢٠١٩

١٣- عمر محمد طالب، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار اليسر للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١،

١٩٨٨

١٤- فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم حضور وممارسات في الفكر والعلم والتعليم، المعهد العالي للفكر الإسلامي، الأردن - عمان، ط١، ٢٠٢١

١٥- محمد هادي مرادي وآخرون، لمحة عن ظهور الرواية العربية وتطورها، جريدة إيران، دراسات الأدب المعاصر، إيران العدد١٦

١٦- محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، العهد العثماني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٤، ٢٠٠٠

١٧- ممدوح عدوان، أعدائي، دار ممدوح عدوان للنشر، ٢٠٠٠

١٨- ناصر يعقوب،اللغة الشعرية في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ٢٠٠٤

المصادر الأجنبية:

١- كاترين أوريكبوني، المهجر، تر: ريتا خاطره، بيروت، ط١، ٢٠٠٨

٢- لوسيان جولدمان وآخرون، البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، تر: محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٤

٣- ميخائيل باختين الملحمة والرواية، تر: جمال شحيد، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢